أنماط الشخصية الإسلامية

الشخصية منذ لحظة ميلادها على صفحات الرواية، وهي تنمو وتشبّ، وتوغل داخل العالم الإبداعي، تتميز بعدة مميزات أو خصائص أو سلوكيات، تضعها في إطار أو تشكيل معين، مختلف فيه عمن سواها. إذ التطابق بين الأشخاص، أمر يكاد يكون مستحيلاً، إن لم يكن كذلك. والشخصية الإسلامية في الإبداع الفني، لا تختلف عن غيرها من الشخصيات إلا بمقدار ما يطبعها الدين الإسلامي بسلوكياته، ومعطياته التي تميزها عن غيرها من شخوص الرواية، وبمقدار التزام هذه الشخصية بهذا الدين يتحدد إطارها، فالشخصية الإسلامية التي ارتبطت في ذهن المتلقي، بوظيفة أو سلوك أو عمل يتصل بالدين، سواء اقتربت من دائرة المثال الإسلامي أو انحرفت عنه، فهي شخصية إسلامية سواء تحيا الإسلام روحاً وسلوكاً، أو ابتعدت عن دائرته أو انحرفت عن الصراط المستقيم، فتذبذبت بين الخير والشر، أو الاعتدال والانحراف، إلا أنها ما تزال في دائرة الإسلام، إذ سماحة هذا الدين ورحابة آفاقه، لا تطرد المنحرفين، بل يسعى لتقويمهم واستوائهم على الصراط المستقيم.

لا نقصد من ذلك المسلم بصفة عامة، إذ إن كل مسلم ملزم بأن يتخذ تعاليم الإسلام سلوكاً ومنهجاً في الحياة، وإنما نقصد المسلم الذي وظفه الروائي في عمله الفني، ليقوم بأداء وظيفة من وظائف الإسلام كإمام المسجد، أو موثق عقود الزواج (المأذون)، أو الشيخ المعلم في كُتّاب القرية ونحوهم..

وهؤلاء يتخذهم الروائي إشارات قد يعلي من خلالهم مبادئ الإسلام أو يطعن في تعاليمه، إن كان عدواً للإسلام بغية هدمه، فهذه الشخصية على هذا النحو هي التي سوف نتصدى لها في بحثنا هذا؛ لأننا رأينا بعض أصحاب النيات السيئة تجاه الإسلام يريدون الطعن في الإسلام من خلال أعمالهم الفنية.

والروائيون عندما يقدمون هذه الشخوص التي ترتبط في مظهرها أو وظيفتها بالدين الإسلامي يختلف كل منهم في تقديم رؤيته لهذه الشخوص، فمنهم من يقدمه في صورته المشرقة، لا سيما علماء الدين، ورموزه التاريخية والحضارية من أبناء الأمة وبناة حضارتها الخالدة، كما يتضح ذلك في المسلسلة التلفزيونية التي قدمها التلفزيون المصري: «القضاء في الإسلام» ، حيث يتناول نماذج رائعة من الشخصيات للقاضي»..

ومنهم من يقدمونهم في صور سلبية شائهة، رامزة إلى الدين الذي تمثله من منطلق فكر منحرف لا يأبه لعقيدة أو دين، فيقدم الشخصيات التي ترتبط في وظيفتها أو مظهرها بالدين من منطلق هذا التصور أو الأيديولوجية التي ترفض العقيدة الإلهية، وتلهث وراء فلسفات فكرية منحرفة، تتبلور في: كون الإسلام أو الدين لا يقدم الحلول الناجعة والناجحة لأزمات الإنسان العصري، سواء أكانت نفسية أم اجتماعية أم اقتصادية، بحجة الواقعية التي يقدمها بعض مبدعي الرواية في مصر، أو حاجات الفن وما يتطلبه من سخرية أو تفكّه كما يدعي بعضهم...

والشخصية الإسلامية ليست وليدة العصر النبوي، أو أنها لا تبرح القرآن العظيم، أو كتب السيرة النبوية الزاخرة الغاصة بالنماذج المشرقة، والخالدة في صفحات التاريخ وذاكرته، كما يظن بعض كُتَّاب الفكر التقدمي، الذين يسمون أنفسهم بالتقدميين!!.. لكنها شخصية كل عصر، وكل زمان، وكل مكان، منذ بزوغ فجر الإسلام، وحتى يومنا هذا، بل حتى يوم الدين، فإن الدين الإسلامي الخاتم يحيا الحياة حتى النخاع بامتدادها وعمقها، والحياة نفسها تحيا العقيدة وتنفعل بها إذا ما أراد الناس ذلك، فإنها ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا...﴾ [١].

فالدين الإسلامي يتحرك دائماً، ولا يكف عن الحركة (يتحرك لتحرير الإنسان كل الإنسان في الأرض، في كل الأرض، من العبودية لغير الله، وليرفعه عن العبودية للطواغيت بلا حدود من الأرض أو الجنس أو القوم أو أي مقوم من مقومات الأرض الهزيلة السخيفة) [٢]، ليصنع إنساناً نظيفاً ومتحرراً وذا فاعلية وحركة في مجتمعه، ليصبح وليد هذا الدين الذي انتشله من الجهالات التي تستطيع أن تمسخ بشريته إلى نوع آخر من المخلوقات لا ينتمي إلى الآدمية المكرمة من بين خلائق الله - عز وجل - في هذا الكون العظيم.

وبمقارنة عابرة سريعة بين حياة الجاهلي قبل الإسلام، وحياة هؤلاء الذين دخلوا الإسلام، وهُمْ هُم الذين كانوا يعيشون الموبقات والرذائل التي كانت سائدة قبل الإسلام، ثم لما دخلوا الإسلام تغير فيهم كل

---

١ - سورة الروم، من الآية: ٣٠.

٢ - في ظلال القرآن ص: ٢٠٨، مجلد: ٤، سيد قطب - دار الشروق - ط: ١٧ سنة: ١٩٩٢م، مصر.

شيء.. الفكر والوجدان والسلوك، حتى لكأن الشخص منهم قد خلق خلقاً جديداً، وذلك لأنه التزم بتعاليم الإسلام وتربيته السليمة التي اقتنع بها أتباعه[١]

فالشخصية الإسلامية هي النموذج أو النمط البشري المأخوذ من الحياة (الواقع)، أو المستمد من التاريخ، ينطلق في كل حياته من الرؤية الإسلامية فيجسد فكرة، أو معنى، أو رمزاً لقيمة إنسانية، التقت فيها أو خلالها المبادئ السامية والقيم الإنسانية الرفيعة.. يتميز برد فعل تجاه ما يعرض له في حياته من أحداث أو مواقف، فتخطئ وتصيب شأن طبيعة البشر، لكن عطاءها النهائي يوحي بالأمل، ويترك التأثير المقنع وفق قناعات فكرية وفنية مقبولة لدى المتلقي.

من ثم، فهي شخصية (ترمز إلى قيم الحق والخير والفضيلة والجمال، تصارع نزواتها وضعفها، وهواها بالطريقة الطبيعية، وعلى ضوء معطيات التربية الإسلامية، أو التجربة الحضارية للمجتمع الإسلامي النظيف والصحيح، ذلك المجتمع الذي تفرزه العقيدة الإسلامية بشمولها، ومثاليتها وكمالها مادياً وروحياً أو تطمح نحو تحقيقه، فإن (قوة المسلم لا تكمن في ضخامة طاقاته المادية بقدر ما ترجع إلى النهج الذي يتولى تربية هذه الطاقات ويحفظها ويهيئها للمشاركة في عملية البناء الحضاري) [٢].

١- راجع رحلتي مع الأدب الإسلامي/ ٦٩، ومدخل إلى الأدب الإسلامي/ ٥٠، بتصرف، نجيب الكيلاني.

٢ - مجلة الأمة عدد: ٦٧ (رجب ١٤٠٦ هـ) مقال (في الأبعاد المنهجية للعمل الإسلامي) للأستاذ أحمد سلام.

والشخصية الإسلامية بهذا التنوع والتدفق والفاعلية نستقبلها عن المصدر الأول للعقيدة الدينية الإسلامية التي يدين بها هذا المسلم، القرآن الكريم الذي يزخر بالنماذج والأنماط الإنسانية الكثيرة والمتنوعة في الإطار الإيجابي، وكذلك السلبي، وهي أنماط عامة وشائعة، وليست بغريبة عن البشر أو المجتمع الإسلامي، تتضح فيها أو خلالها المعالم الروحية أو النفسية التي كثيراً ما يغفل عنها علماء النفس المتخصصون في دراسة النفس البشرية.. (ولكن على جانب من الملاحظة والنتائج المختبرية، فإن إغفالهم لهذا الجانب الروحي من الإنسان في دراستهم للشخصية، قد أدى إلى قصور واضح في فهمهم للإنسان، وفي محاولة معرفتهم للعوامل المحددة للشخصية السوية وغير السوية. كما أدى ذلك إلى عدم اهتدائهم إلى الطريقة المثلى في العلاج النفسي لاضطرابات الشخصية - كما سنوضح ذلك بعد لأن الجانب الروحي في الإنسان هو الذي يميزه عن الحيوان، فهو مشارك له في أشياء، ويتميز عنه بخصائص الروح، التي تجعله ينزع إلى معرفة الله سبحانه وعبادته والتشوق إلى الفضائل والمثل العليا التي ترتفع به إلى مستويات عالية من الكمال الإنساني) [١] الذي أهّله لخلافة الله في الأرض، وحمل أمانته..

أما الجانب المادي في الإنسان والذي يتفق فيه مع الحيوان، فإنه حقيقة مُعترف بها في خلق الإنسان وسيكولوجيته.. ومن هنا ينشأ

١- القرآن وعلم النفس ص: ٢٠٧، ٢٠٩ بتصرف، د/ محمد عثمان نجاتي - دار الشروق - رابعة - ١٩٨٩. مصر.

الصراع داخل النفس البشرية بين الجانب الروحي (الروح) والجانب المادي (الجسد)، ويضطرم في داخليتها ويتطور ويتأجج خلالها، فمن استطاع أن يوفق بين الجانبين، ويصنع لنفسه توازناً بين مطالبهما في إطار المنهج الرباني الذي خلق هذه النفس، ينجح وينال سعادة الدنيا والآخرة، ومن ينساق وراء شهواته ومطالبه الجسدية (الهوى) غير معترف أو آبهٍ للجانب الروحي، أو أغفله، استحق ما أعده الله له من العذاب والشقاء المقيم، في الدنيا والآخر كذلك: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [١].

فالله (عز وجل) عندما خلق هذا الإنسان، جعل في طبيعة تكوينه استعداداً لفعل كل من الخير والشر، استعداداً لاتباع أهوائه وشهواته، والاستغراق في الملذات الحسية التي تجعله يلتصق بالأرض لا يبرحها، وركَّب فيه كذلك استعداداً للتسامي إلى آفاق الفضيلة والمُثُل الإنسانية التي ترفعه إلى درجة الكمال الإنساني البشري، وألهمه ما يسمى بـ «الصراع» (العراك داخل النفس) كي يصمد للاختيار، فيختار الطاعة أو المعصية، الخير أو الشر، الحب أو الكره، الدنيا أو الآخرة، فإذا انتهى الصراع، وانحازت النفس إلى الشر، تكون قد خرجت من دائرة الآدمية إلى الحيوانية [٢] ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً

(١) - سورة النازعات، الآيات (٣٧-٤١).
(٢) - سورة الفرقان، الآيتان: (٤٣ -٤٤).

﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴿٤٤﴾ أما إذا انتهى به الصراع، إلى شاطئ الخير، وانحازت نفسه إليه، وعافت الشر، فإنه يقع من دائرة الآدميين في مركزها..

ومن هنا، يستطيع أن يخلق لنفسه توازناً بين مطالب الجسد، ومطالب الروح، في إطار رؤية العقيدة الإسلامية لهذا التوازن؛ ليصبح الإنسان مسلماً حقيقياً، فالإسلام عندما يتجه نحو هذا الإنسان يعتبره (قيمة حقيقية، وقوة للتعبير والحركة في الحياة، بما أودع فيه من القدرة العقلية والجسدية، وقابلية التكيف المستمر، دليل ذلك أنه جعله مكلفاً مسؤولاً يستطيع من خلال تلك القدرات أن يحقق خلافة الله على الأرض التي خلقت له خلقاً فريداً متميزاً، وهيئت تهيئة متناسقة، ووضع فيها كل ما يساعد على أداء الأمانة الكبرى في العيش والحركة والتغيير)[١]، خلال حياته التي يحياها في الواقع، وشتان بين إنسان يعيش حياته ملتصقاً بجدران المادة لا يبرح الأرض التي يعيش فوقها، منقراً بترابها، مشدوداً إلى طينها، وبين إنسان يقف كذلك على الأرض نفسها، لكنه يمد بصره إلى الآفاق البعيدة لكي يمنح وجوده معنى، ويمكّن تكوينه النفسي من التوازن والامتلاء من المحدود إلى المطلق، ومن الحفر الضيقة إلى السماء الرحيبة، ومن الفناء إلى الخلود[٢].

١- مقال بمجلة الأمة عدد (٣٤) (الإسلام ودور الإنسان في التنمية) د/ محسن عبد الحميد.
٢- مقال بمجلة الأمة عدد (٦٧) (حوار في المعمار الكوني) د/ عمار الدين خليل.

والقرآن الكريم (دستور الإسلام) لا يطرد الذين تهجع نفوسهم، أو تركن إلى الضعف أمام مطالب الجسد في لحظات متفاوتة، فما تقع إلا وتنهض وتؤوب إلى مكانها من مركز الدائرة - دائرة الإسلام - لأنه يفتح أمامهم باب التوبة على مصراعيه، فتصبح في حالة من حالات النفس الإنسانية التي يعرض لها القرآن الكريم في كثير من أنماطه البشرية المختلفة.. وهي كالآتي[١]:

الأولى: النفس الأمارة بالسوء: وهي النفس التي تنغمس في ملذاتها، وتلهث وراء شهواتها، قال تعالى: (**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾**) [٢].

الثانية: النفس اللوامة، وهي النفس التي تبلغ مرتبة أعلى من الكمال الإنساني، فيبدأ ضميرها في الاستيقاظ، فينكر ويستنكر ضعف إرادته، وخور عزيمته، وانقياده لأهوائه وشهواته، وملذات الحياة الدنيوية، مما أوقعه في الخطايا والمعاصي، فيشعر بالذنب، فيلوم نفسه على ما فرط منها، ويتجه نحو إلهه مستغفراً تائباً، فيصبح في هذه الحالة تحت تأثير النفس اللوامة. قال تعالى: ﴿**لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾**﴾ [٣].

١- القرآن الكريم وعلم النفس ص: ٢١٤ وما بعدها، د/ محمد عثمان نجاتي.. والقرآن الكريم يصنف النفوس البشرية من الناحية العقدية إلى مؤمن ومنافق وكافر.

٢- سورة يوسف: آية/ ٥٣.

٣- سورة القيامة، الآيتان: ١- ٢.

الثالثة: النفس المطمئنة، وهي التي تكون عندما يكون الإنسان قد أخلص التوبة والعبادة والأعمال الصالحة لله (عز وجل)، وابتعد عن كل ما يغضب الله، تَحَكَّم تَحكُّماً كاملاً في أهوائه وشهواته، وقام بتوجيهها إلى الإشباع بالطرق، أو خلال القنوات المشروعة التي عينها وبينها الشرع الحكيم، فحقق بذلك التوازن التام بين مطالبه البدنية ومطالبه الروحية، فإنه يصل إلى أعلى مرتبة من الكمال الإنساني، وهي المرتبة التي تكون فيها النفس الإنسانية في حالة من الاطمئنان والسكينة فتبلغ درجة النفس المطمئنة.. قال تعالى: (**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي**) [١].

فهذه المفاهيم الثلاثة للنفس في القرآن، ما هي إلا حالات تتصف بها شخصية الإنسان في مستويات مختلفة من الكمال الإنساني، التي تمر بها أثناء صراعها الداخلي بين الجانبين - المادي / الروحي - من طبيعة تكوينها، فحينما تكون شخصية الإنسان في أدنى مستوياتها الإنسانية، بحيث تسيطر عليها الأهواء والشهوات والملذات البدنية والدنيوية، فإنها تكون في حالة ينطبق عليها وصف النفس «الأمارة بالسوء» وحينما تبلغ الشخصية أعلى مستويات الكمال البشري، حيث يحدث التوازن التام بين المطالب البدنية والروحية، فإنها تصبح في الحالة التي ينطبق عليها وصف «النفس المطمئنة». وبين هذين

١- سورة الفجر، الآيات: ٢٧-٣٠.

المستويين، أو هاتين الحالتين حالة أخرى، مستوى متوسط بينهما، يحاسب فيه الإنسان نفسه على ما يرتكب من أخطاء، ويسعى جاهداً في الامتناع عن ارتكاب ما يغضب الله، ويسبب له تأنيب الضمير، ولكنه لا ينجح دائماً في مسعاه، فقد يضعف أحياناً ويقع في الخطيئة، إلا أنه سرعان ما يفكر في النهوض من هذا السقوط، والأوبة إلى الله.. والشخصية في هذه الحال تسمى «النفس اللوامة»..) [١].

ولعل علماء النفس الذين عُنوا - لا سيما - بالتحليل النفسي، ودراسة الشخصيات على ضوئه، وعلى رأسهم «سيجموند فرويد» الذي أسس هذه المدرسة في العصر الحديث نحا نحواً قريباً - في تقسيمه للنفس البشرية إلى ثلاثة أقسام - من القرآن الكريم، في تقسيمه السابق لحالات النفس البشرية في عمومها، أو به أشبه.. فقسَّم فرويد النفس إلى: «الهو، والأنا، والأنا الأعلى..» [٢].

أولاً: الهو: في رأي «فرويد» هو ذلك الجزء من النفس الذي يحوي الغرائز التي تنبعث من البدن، وهو يطيع مبدأ اللذة، ويهدف دائماً إلى الإشباع من غير مراعاة للمنطق، أو الأخلاق أو الواقع، و«الهو» بهذا المعنى يشبه إلى حد ما مفهوم «النفس الأمارة بالسوء» في القرآن الكريم.

ثانياً: الأنا: هو ذلك الجزء من النفس الذي يقبض على زمام الرغبات الغريزية المنبعثة من «الهو» ويسيطر عليها، فيسمح بإشباع ما

١- القرآن وعلم النفس ص: ٢١٥، ٢١٦ (بتصرف).

٢- نفس المرجع ص: ٢١٦، ٢١٧ فيما ترجمة الدكتور/ محمد عثمان نجاتي عن دراسات لفرويد: الأنا والهو، ص: ١٤: ١٧، ومعالم التحليل النفسي ص: ٤٦ - ٤٨ من طبعة دار الشروق ١٩٨٢م، ١٩٨٣م بمصر.

يشاء منها، ويؤجل ما يرى تأجيله، ويكبت ما يرى ضرورة كبته، مراعياً «مبدأ الواقع» أو العالم الخارجي، بما يتضمنه ذلك من قوانين وقيم وأخلاق وتعاليم دينية.

ثالثاً: الأنا الأعلى: هو ذلك الجزء من النفس الذي يتكون من التعاليم التي يتلقاها الفرد من والديه ومدرسيه، ومن قيم الثقافة التي ينشأ فيها، ويصبح قوة نفسية داخلية، تحاسب الفرد وتراقبه، وتنقده، وتهدده بالعقاب، وهو ما يعرف عادة «بالضمير»، ويرى فرويد أن «الأنا الأعلى» يمثل ما هو سامٍ في الطبيعة الإنسانية، وهو بهذا المعنى يشبه إلى حد ما مفهوم ما وصفه القرآن الكريم بـ «النفس اللوامة».

ويقوم «الأنا» - في رأي فرويد - بالتوفيق بين «الهو» في الواقع أو العالم الخارجي، و «الأنا الأعلى» بحيث يسمح بإشباع رغباته في الحدود التي يسمح بها الواقع، ويحد من تطرف «الأنا الأعلى» بحيث لا يجعله يسرف في النقد والتهديد بالعقاب بدون مبرر معقول.. وإذا نجح «الأنا» في وظيفته التوفيقية، أمكن أن يتحقق للإنسان الاتّزان والسواء والصحة النفسية، وعلى ذلك نستطيع أن نجد شبها بين التي يؤدي إليها نجاح «الأنا» في وظيفته، وما يحققه للإنسان من اتزان وسعادة وبين حالة «النفس المطمئنة» التي يصل إليها الإنسان بالتغلب على أهوائه. وبتحقيق التوازن بين مطالبه البدنية ومطالبه الروحية، مراعياً في ذلك «مبدأ الواقع» الذي يفرضه نظام الحياة في المجتمع المسلم، من القيام بالعبادات المفروضة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والعمل الصالح، واتباع قواعد الأخلاق الإسلامية.

تلك كانت أقسام النفس في رؤية العالم النفسي التحليلي «سيجموند فرويد» وهي تختلف اختلافاً جذرياً عن حالات النفس كما جاءت في التصور القرآني للنفس الإنسانية ومن هذه الاختلافات التي ترينا انحراف المنهج، في تحليل الشخصيات لدى هذا المفكر الوجودي ما يأتي [١]:

١- مفاهيم النفس (الأمارة بالسوء - واللَّوَّامة - والمطمئنة) في القرآن الكريم ما هي إلا حالات مختلفة، تتصف بها النفس أثناء صراعها الداخلي بين الجانب المادي والجانب الروحي في شخصية الإنسان - الإنسان الواحد.. وهي ليست أقساماً للنفس كما يرى علماء النفس (فرويد).

٢- المفاهيم القرآنية للنفس (الأمارة بالسوء - اللوامة - المطمئنة)، لا تكون أثناء مراحل نمو معينة يمر بها الإنسان، أما مفاهيم النفس لدى «فرويد» (الهو، والأنا، والأنا الأعلى) أقسام مختلفة للنفس، وتتكون كذلك في مراحل مختلفة من النمو، «فالهو» هو نفس الطفل عقب ميلاده مباشرة، إذ يكون الطفل واقعاً كلياً تحت تأثير متطلباته الغريزية، ثم تحت تأثير العالم الخارجي، يبدأ يتكون من «الهو» جزء متميز عنه هو «الأنا» ، وهو الذي يقوم بالتحكم في الغرائز المنبعثة من «الهو» مراعياً مقتضيات الواقع والعالم الخارجي، ومن التعاليم والنواهي التي يتلقاها الطفل من والديه، والثقافة التي ينشأ فيها يتكون «الأنا الأعلى» وهو الضمير الذي يحاسبه ويلومه، ويؤنّبه على ما يقوم به من أخطاء..

١- راجع: القرآن وعلم النفس، ص: ٢١٧، ٢١٨، وكتاب «الشخصية في سوائها وانحرافها» الفصل الثالث: الشخصية والتكوين النفسي ص: ٤٤-٥٣ د/ مصطفى فهمي.

٣- الصراع يقوم بين الأقسام الثلاثة للشخصية الفرويدية حيث يحاول «الأنا» ، أن يوفق بين متطلبات «الهو» و» الأنا الأعلى» والعالم الخارجي، فإذا نجح في ذلك كان الإنسان سوياً ومتمتعاً بالصحة النفسية - بينما يقع الصراع النفسي وفقاً لتصور القرآن لطبيعة تكوين الإنسان بين الجانب المادي والجانب الروحي من شخصية الإنسان، وتبعاً لنتيجة هذا الصراع تنشأ هذه الحالات الثلاث للنفس الإنسانية.

وعندما يضطرم الصراع في نفس المسلم، فلا بد أن يوازن بين الجانبين القائمين في ذاته (المادي والروحي)، فيقوم بإشباع رغباته وحاجاته البدنية، في حدود ما أباح الشرع خلال القنوات الحلال التي أتاحها الله - عز وجل - العليم بما خلق وركَّب في الإنسان من غرائز ﴿**أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴿١٤﴾﴾ (١).

فمثلاً رغبة الجنس يشبعها من خلال الزواج، ورغبة جمع المال يشبعها بالعمل، أو التجارة التي تدر عليه الكسب الحلال.. وهكذا بقية الغرائز، ويقوم في الوقت نفس بإشباع حاجاته الروحية في غير سرف أو تطرف. فالرسول - صلى الله عليه وسلم - كان يصوم ويفطر، ويقوم الليل وينام فيخلد للراحة، ويتزوج النساء، وذلك ما يسمى «بالاعتدال» أو «الوسطية» ذلك المبدأ الذي يأخذ به الإسلام في شتى عباداته وشؤونه ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا . . ﴿١٤٣﴾**﴾ (٢).

١- سورة الملك آية/ ١٤.

٢ - سورة البقرة آية /١٤٣

وفي قوله تعالى يتغيا الوسطية في عبادة الصلاة: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ [١]. وقوله - عز وجل - موجهاً إلى الوسطية في الإنفاق: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [٢].

والسرف أو التطرف مرفوضان في مضمار العبادة ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ ﴿١٧١﴾﴾ [٣]، لأن الاعتدال هو الذي يحقق التوازن النفسي المطلوب لإيجاد شخصية إسلامية تتحقق في ذاتيتها الحقيقة الكاملة (الفكرة الإسلامية الكاملة)، تلك النفس التي تمثلت في شخصية الرسول - صلى الله عليه وسلم - (الإنسانية النموذجية الكاملة التي توازنت فيها جميع القوى الإنسانية البدنية منها والروحية) [٤].. تحيا الإسلام روحاً وسلوكاً، فاستقامت نموذجاً إنسانياً ربانياً تطمح إليه عيون كل من يبغي النموذج (المثال) في حياته خلال التصور الإسلامي الذي يحكم حركة هذا الكيان النفسي للإنسان، ذاك الكيان المرن المتحرك الذي لا يجمد على صورة واحدة، إنه دائم البروز والانحسار، يبرز منه جانب ويختفي وراءه جانب، في حركة دائمة لا تهدأ، ولكن مزيته هي مرونته المرونة التي تسمح بالتحول الدائم والتشكل المستمر دون أن يفقد ترابطه أو يتفكك.. فهو دائم التشكل ولكنه هو هو في المجموع..[٥].

وكل المسلمين مطالبون بأن يقتربوا من هذا النموذج الأمثل الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأن يتشبهوا به ما أمكنهم التشبه؛ لأن

١- سورة الإسراء آية/ ١١٠ .
٢- سورة الإسراء آية /٢٩.
٣- سورة النساء آية /١٧١.
٤ - في النفس والمجتمع ص: ٦٣ محمد قطب. دار الشروق، الحادية عشرة: ١٩٩٣م القاهرة.
٥ - منهج التربية الإسلامية: ٢٣/١ محمد قطب، دار الشروق، ط: الثالثة عشرة سنة ١٩٩٢م، القاهرة.

الرسول في سلوكياته، يُنَفِّذُ تعاليم ربه سبحانه وتعالى، ويطلب من أتباعه أن يكونوا مثله، فالعمل والسلوك ليست خصوصية انفرد بها الرسول - صلى الله عليه وسلم - وحده، فهو من حيث كونه رسولا لا يشبهه أحد، ولا يمكن أن يصل إلى هذه الدرجة غيره من البشر، ولكن الدعوة الإسلامية التي جاء بها مُطَالب بها كل فرد من المسلمين.

فالإسلام بجملته وتفصيله، وأصوله وفروعه، إنما هو رحمة مهداة من الله - عز وجل - للعباد كل العباد، من ثم جاء بأحسن ما يتطلع إليه الإنسان من أخلاق وعمل وعبادة ونظام اجتماعي وسياسي واقتصادي، يوطّن الإنسان المسلم نفسه في هذا الدين، وبقدر ما يصل إلى درجة ما من هذا التوطين أو التمكين في الدين، يكون نصيبه من رحمة هذا الدين.. يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم -: «مَثَل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكانت منها نقية قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا ورعوا، وأصاب طائفة منها أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فَقِه في دين الله ونَفَعَهُ ما بعثني الله به فَعَلِمَ وعَلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يَقْبَل هدى الله الذي أرسلت به» [١].

فلكل إنسان درجته في الدين والحياة، ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ [٢] والله - عز وجل يؤتي كل إنسان من خير العقيدة، بمقدار درجته في

١- راجع فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، المجلد الأول: كتاب العلم باب فضل (من علم وعلم) ص: ١٧٥ رقم الحديث: ٧٩ - دار الفكر العربي - د ت- مصر.

٢ - سورة الأنعام، من الآية: ١٣٢.

أداء مناسكها، التي تشمل الحياة كلها (فالإسلام يوسع معنى العبادة حتى تشمل كل الحياة، كل عمل يتوجه به الإنسان إلى الله فهو عبادة، وكل عمل يتركه الإنسان تقرباً إلى الله واحتساباً فهو عبادة.. وكل شعور نظيف في باطن النفس فهو عبادة، وكل امتناع عن شعورها بسط من أجل مرضاة الله فهو عبادة، وكل ذكر لله في الليل فهو عبادة، ومن ثم تشمل العبادة الحياة، ويصبح الإنسان عابداً لله حيثما توجه إلى الله، بهذا المعنى تصبح العبادة هي الصلة الدائمة بين العبد والرب، وتصبح هي التربية الدائمة للروح[١].

فقيمة العبادة تكمن في أن تكون (منهج حياة يشمل كل الحياة، قيمتها أن تكون خطة سلوك، وخطة عمل، وخطة فكر، وخطة شعور، قائمة كلها على منهج واضح، يتبين فيه - في كل لحظة ما ينبغي وما لا ينبغي)[٢].

فلم تقتصر إذن - على مناسك العبادة وأدائها فحسب، لكنها تشمل سلوكيات العابد في نشاطاته المختلفة في الحياة، فهي معنى شامل.. وواسع يشمل كل دقائق الحياة بتفصيلاتها، وتشمل كل فكرة وكل شعور، فهي التوجه بكل نشاط حيوي إلى الله عز وجل ومراعاة ما يرضيه في هذا النشاط، وما يغضبه، وتوقّي غضبه، والعمل على رضاه)[٣]. فيرى عبده حيث أمره، ويفتقده حيث نهاه..

وبمقدار التزام العبد بذلك المنهج الشامل ينال الفضل الذي أعده الله له سواء في الحياة الدنيا أو في الآخرة.. ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ

١- منهج التربية الإسلامية ٦٧/١، ٣٤.
٢- منهج التربية الإسلامية ٦٧/١، ٣٤.
٣- نفس المرجع ص: ١٤/١.

فَضْلَهُ ﴿٣﴾ [١] فبمقدار العمل يؤتى الإنسان الأجر، وإن كنا نوقن أن العبد لن يدخل الجنة إلا برضى الله - عز وجل - ورحمته لا بعمله، فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة» [٢].

وهذا يفتح المجال واسعاً أمام المسلم لكي يزيد من العبادة، ومن خضوعه حتى يرضى عنه ويدخله في رحمته فينال نعيم جناته.

ومن ثم، نخلص إلى أن الشخصية السوية في الإسلام: هي الشخصية التي تعنى بالبدن وصحته، وتشبع حاجاته ورغائبه في الحدود التي رسمها الشرع، والتي تتمسك في الوقت نفسه بالإيمان بالله تعالى، وتؤدي العبادات، وتقوم بكل ما يرضي الله - عز وجل - وتتجنب كل ما يغضبه، في توازن وانسجام يتوافق مع الفطرة، ويحقق ذاتية الإنسان الحقيقية في كمالها الإنساني (النموذج) المنسجم مع مفردات الكون والحياة.

---

١ - سورة هود من الآية : ٣.

٢- صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب صفة القيامة والجنة والنار - باب لن يدخل أحدكم الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى، المجلد الخامس ص: ٦٨٢ وما بعدها بألفاظ مختلفة، دار الشعب - د ت - مصر.